جامعة بغداد.كلية التربية للبنات
قسم اللغة العربية
المرحلة الثالثة/ الصباحي.
مادة: النقد العربي القديم.
شروط الألفاظ عند الجاحظ
د. صلاح كاظم هادي

إن الاتجاه الفكري و البعد المعرفي الذي اعتمدهما الجاحظ في فهم اللغة أنتجا نظرة الفصل التجريدي أو النظري لخصائص مكونات اللغة ، وتحت تأثير الفكرة الثنائية لدى المعتزلة ـ وكذلك فكرة إثبات الحقيقة عن طريق العقل فقد افترض الجاحظ أن اللغة تتكون من ألفاظ ومعان وتراكيب تنظم بحسب مقتضى الحال الذي يفرضه نوع المتكلم والسامع والظرف المحيط بهما ، وأشار إلى العلاقة بين هذه المكونات، أي بمعنى أنه نظر لكل مكون في حالة انفراده بالوجود ، ونظر إليه أيضاً في حالة وجوده ضمن المكونات الأخرى فيقتضي أن يحصل بينه وبين المكون الآخر أم توافق وائتلاف أو تحصل علاقة تنافر واختلاف. وقد أثرت فكرة أو مقولة خلق القرآن في توجيه الجاحظ نحو تتصور أن المعاني تكون حاضرة في الذهن أولاً، ثم تتكون الألفاظ لتقدمها على شكل نص، فالمعاني قديمة ، والنص اللفظي محدث، وذكر الكتور بدوي طبانة أن الجاحظ اندفع نحو التمسك أو الميل للألفاظ دون المعاني ، فتعلق بمذهب الصنعة وجعلها هي السبب في تجويد النص الأدبي ، فالأفكار موجودة مسبقاً في ذهن الأديب فيبرزها عن طريق صياغته الفنية وتجويدها ، ويقدمها إلى المتلقي ، ولذلك اعتبر د. بدوي طبانة أن الجاحظ صاحب مذهب الصنعة اللفظية ، الذي تابعه عليه ابو هلال العسكري في كتابه (الصناعتين) ، وتابعه ابن سنان الخفاجي في كتابه (سر الفصاحة) . وقد بالغ د. محمد زغلول سلّام عندما زعم أن الجاحظ يرى أن الإعجاز القرآني يتعلق بالألفاظ من دون المعاني. وقد أهمل د. محمد زغلول سلّام فكرة النظم أو إئتلاف الألفاظ والمعاني التي قدمها الجاحظ في تأويل وتفسير إعجاز القرآن الكريم ، وقد قال ((يرى الجاحظ أن الإعجاز متصل بالنظم وحده بصرف النظر عما يحويه القرآن من المعاني ، إذ طلب الله أن يؤتوا بعشر سور من مثله في النظم والروعة في التأليف حتى ولو حوى التأليف الرائع كل باطل ومفترى ولا معنى له ، فما بال القرآن وقد جمع إلى النظام الرائع المعاني الفائقة)) ، وعبارة الجاحظ الأخيرة تنقض رأي د. سلّام ، ولأنّ للجاحظ وقفات رائعة على معاني الآيات الكريمة ، منبها على سموها وتفردها وعلوها، وشرح كيف أن القرآن عبر عنها بإيجاز معجز وبأسلوب مبهر، ولا ننسى أن الجاحظ صنف كتاب (نظم القرآن) ، لكن هذا الكتاب مفقود. وقد أشار إليه ابن النديم في كتابه الفهرست، فضلاً عن أن الجاحظ ذكره مرات عدة في مؤلفاته. وقد داف عن فكرة الجاحظ بعض الدارسين ومنهم د. محمد طاهر درويش، إذ ذهب إلى أن الجاحظ قد ثمن الصناعة الفنية الأدبية ، فهو لايقصد ترك النظر إلى المعاني بل أراد العناية بالصياغة والافتنان ، وإن النظرة إلى الأدب ينبغي أن تكون على أساس ما احتوى من آثار الجمال في الشكل الذي قدم عن طريق المعنى. والنظر إلى الوسائل التي يتفاضل بها الأدباء ، وليست الوسائل هذه إلّا اختيار الألفاظ واستعمالها في الأساليب التي يختص بها الأدب.

وقد أورد الجاحظ في كتابه البيان والتبيين صحيفة بشر بن المعتمر الذي لخص فيها مكانة اختيار الألفاظ المناسبة للمعاني الشريفة ، ووضع شروطاً للألفاظ وفصاحتها ، وقد اعتمدها الجاحظ من وجهة نظر بيانية لاستكشاف مواطن الجمال والقبح والقوة والضعف في الكلام، فوضع للألفاظ تصنيفاً بين أنواعها ،ويمكن حصرها كالأتي:

1ـ الألفاظ العامية: قال الجاحظ منبها إلى ضرورة ترك بعض الألفاظ وعدم إدخالها إلى النص الأدبي ((ولا ينبغي أن يكون عامياً ساقطاً سوقياً...)) ومثال العامي السوقي من الألفاظ غير العربية أو الدخيلة ، مثل (

الخيار) و (الأترج ، فاكهة ـ) و (الفالوذج ـ أكلة ،) و(الفالج ـ مرض ـ) و(أشكنك ، بقايا الحجارة من البناء ـ) و(الأيين ـ القانون ـ) و (البستندود ـ فطائر ـ) و (البارجين والسكين ـ الشوكة والسكين ـ) وغير ذلك الكثير ... كما في قول الشاعر:

قد أصبحت أم الخيار تدعي عليّ ذنباً كلُّه لم أفعلِ

والصواب هو (قثاء)، وليس (خيارا).

2ـ الألفاظ الوحشية : وقال الجاحظ : ((... ولا ينبغي أن يكون وحشياً)) ، وقد أكثر التنبيه إلى تجنب الوحشي من الكلام ، وهو ما نفر عنه السمع لكنها كلمة عربية قليلة الاستعمال ، لتوغلها في القدم ولانحسار استعمالها بين جفاة البدو ، وهي حسنة مستغربة ولا يعلم باستعمالها وبمعناها إلّا العالم المبرز والإعرابي القح، وقال ابراهيم بن المهدي لكاتبه عبد الله بن صاعد ((إياك وتتبع وحشيّ الكلام طمعاً في نيل البلاغة فإن ذلك هو العيب الأكبر ، وعليك بالسهل ، مع تجنبك السفل)).، و الألفاظ الوحشية مثل قول أبي زبيد الطائي((خرجت في صُيَّابَة أشراف من أبناء قبائل العرب، ذوي هيئة وشارة حسنة، ونحن نريد الحارث بن أبي شمر الغساني ملك الشأم، فاخروَّط بنا السير في حمارة القيظ ، حتى إذا عصبت الأفواه ، وذبلت الشفاه، وشالت المياه، وأذكت الجوزاء المعزاء، وذاب الصيهب ، وصر الجندب وأضاف العصفور الضب في وكره، وجاوره في جحره، قال قائل: أيها الركب، غوروا بنا في دوح هذا الوادي، وإذا وادٍ قد بدا لنا كثير الدغل، دائم الغلل ...)) والصيّابة خير الشيء أو أفضله ـ واخروط الطريق طال ، والمعزاء الصلبة ، الصهيب الصخرة الصلبة ، الغور الدخول ، والدوح الشجرة العظيمة، والدغل النبات الكثيف الملتف ، والغلل الماء الذي يجري بين الشجر.

3ـ الألفاظ الغريبة أو الحوشية: وهي الألفاظ التي تضم إلى صفات الوحشي أنها مستكرهة مثل (الهعخع ، نبات) و (مستشزرات)، وذلك لتقارب مخارج الأصوات في بنيتها، مثل قول امرئ القيس :

وفَرعٍ يُغَشِّي المتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ . . أَثِيثٍ كِقِنوِ النَّخلَةِ المُتَعَثْكِلِ

غدَائِرُهُ مُستَشْزِرَاتٌ إلَى العُلا . . تَضِلُّ المدَارَى فِي مُثَنًّى ومُرسَلِ

4ـ الألفاظ الجزلة : لقد عد بشر من المعتمر أن من خصائص الفصاحة، استعمال الألفاظ الجزلة غير الغريبة أو الوحشية أو الحوشية ، وكذلك جعلها الجاحظ نتيجة من نتائج توافر الطبع والابتعاد عن التكلف.

5ـ الألفاظ المتنافرة بالنظم : قال الجاحظ : (ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر، وإن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه. فمن ذلك قول الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر

ولما رأى من لا علم له أن أحدا لا يستطيع أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتعتع ولا يتلجلج، وقيل لهم إن ذلك إنما اعتراه إذ كان من أشعار الجن، صدقوا بذلك) وكذلك (قول الشاعر ابن يسير:

لم يضرها، والحمد لله، شيء ... وانثنت نحو عزف نفس ذهول

فتفقد النصف الأخير من هذا البيت، فإنك ستجد بعض ألفاظه يتبرأ من بعض إذا كان الشعر مستكرها، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها ممائلا لبعض، كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات. وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة.)